الثقافة العربية

وأثرها فى حضارة مصر الحديثة

لحضرة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام

استعمل الكتاب المعاصرون كلمة "ثقافة" ترجمة لكلمة Culture وهذه الكلمة تدل فى أصل معناها على زرع الأرض واستغلالها وما يتصل بهذا، وتقال مجازا فيما يحصله الانسان من علم وفن فيقال مثلا :

Culture des lettres, des sciences, des Beaux arts

ويقال أيضا فى معنى التعليم والتربية Instruction education وتقال أحيانا فى معنى الحضارة تبعا لاستعمالها فى اللغة الألمانية .

وقد أراد كتاب الترك فى هذا العصر أن يقابلوا هذه الكلمة Culture بكلمة تقابلها فى الأصل معناها ويمكن أن تسايرها فى معانيها الأخرى فاختاروا من اللغة العربية كلمة "حرث" وسوغ لهم هذا أن الحرث يقال فى العربية لكل ما يكسبه الانسان . وفى القرآن "من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب" وكلمة ثقافة لها معنى حسى هو تقويم المعوج من الرماح والقسى ونحوها . والثقاف الآلة التى يقوم بها . وقد استعملت فى التقويم النفسى بالتعليم والتأديب فقيل ثقفه أى أدبه أو علمه وقيل ثقف الانسان ثقف وثقافة وثقف صار حاذقا فطنا ، وقيل رجل ثقف وثقف . وكذلك قيل ثقف الشىء ثقفا ثقافة أى حذقه . فالثقافة حذق الشىء واتقانه وهى أيضا الفطنة والخبرة من طول ممارسة العمل وقد جاء فى فاتحة كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى . "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات. منها ماتثقفه العين ومنها ماتثقفه الأذن ومنها ماتثقفه اليد ومنها ماتثقفه اللسان" فاذا استعملنا الثقافة فى كل ما يثقفه الانسان كادت قريبة من استعمالها القديم وقريبة من كلمة Culture التى تقابل بها

إن نكون قد بينا معنى الكلمة تبينا يعين على تحديد موضوعنا فقد بقى أن نكمل تحديد الموضوع بتبيين ما يقصد من هذه العبارة "الثقافة العربية" أريد ما تثقفه العرب وما تثقفوا به فى مواطنهم الاولى والمواطن التى انتشروا فيها بين نجد وايران و بحر الظلمات ام نريد كل ما حوته اللغة العربية فى ديار العرب وغيرها .

الحق انا لسنا فى حاجة الى أن نتكلم فيما أنشأه العرب وما أنشأه المستعربون أو نبحث عما ألفه العرب وغيرهم فى البلاد العربية وما ألفه غير العرب والعرب فى البلاد الأعجمية. ليس

هذا موضوعنا ولا يحتاج إليه موضوعنا. فالحق أن الثقافة التى عرفتها البلاد العربية فى العصور الاسلامية هى كل الثقافة التى دونت باللغة العربية ولا هذه الثقافة بأن كتابا فى موضوع من موضوعاتها كتب فى بلد عربى وآخر كتب فى بلد أعجمى أو أن مؤلفى بعض الكتب من العرب ومؤلفى بعضها ليسوا من العرب أيمكن أن تفرق فى معاجم العربية بين أساس البلاغة الذى ألفه الزمخشرى التركى وبين القاموس المحيط الذى ألفه الفيروزبادى العربى أصلا — ولسان العرب الذى ألفه ابن منظور المصرى الإفريقى الأنصارى الخزرجى وكتاب معيار اللغة الذى ألفه محمد على الشيرازى .

قد نظرت نظرة الى كتب الأدب فى مكتبى وأنا أفكر فى هذا الموضوع فرأيت كتاب الأمالى لأبى على القالى وهو أديب أصله من قاليفلا رحل منها إلى العراق وأقام ببغداد ثم رحل إلى الأندلس ورأيت بجانبه شرحه للوزير ابن عبيد البكرى الأندلسى العربى فكتاب البيان والتبيين للجاحظ المصرى العربى فكتاب الأوراق لأبى بكر الصولى التركى الأصل وكان أباه فى جرجان فكتاب بلوغ الأرب للألوسى البغدادى. فهذه كتب خمسة وقع عليها النظر اتفاقا منها ما ألف فى القرن الثالث ومنها ما ألف فى عصرنا ومنها ما ألف فى البصرة وبغداد ومنها ما ألف فى الأندلس ومنها ما ألفه عربى صح ومنها ما ألفه مستعرب ولكنها كتب ثقافة واحدة متصلة الموضوع . ولو ألقيت هذه النظرة على كتب الفقه أو كتب التاريخ وأخذت منها خمسة كتب كذلك لوجدت كتبا متفقة على موضوع واحد مع اختلاف أعصار المؤلفين وأقطارهم وأجناسهم ولا أجد اسما جامعا لهذا كله إلا الثقافة العربية فان شئت فقل ثقافة اللغة العربية و إن شئت فقل ثقافة العرب امتدت الى غيرهم أو شاركهم فيها غيرهم فلن تختلف النتائج .

فهل أبعد من قصد من اقترح على عنوان هذه المحاضرة إذا قلت أن موضوعها تأثير كل ما وعته اللغة العربية فى حضارة مصر الحديثة .

ولكننى لا أتكلم عن الثقافة العربية أو المعارف العربية كلها بل أفرق بين جنس منها وجنس. ذلكم إن من ثقافات البشر ما يأبى القومية ، يأبى الانتساب إلى الأقوام والأوطان. فاذا قلت الثقافة العربية أو الثقافة الفرنسية بعد الفكر عن هذا الجنس العام من المعارف البشرية أو اتجه إلى جنس آخر. ذلكم أن المعارف أو الثقافة قسمان أو جنسان . قسم يقوم على قوانين الطبيعة الخارجة عن النفس الإنسانية كالعلوم الطبيعية والرياضية . وهذه لا تختلف باختلاف الأقوام أو الأوطان . فاذا أدركت الأمم قانونا من قوانين الطبيعة لم يختلف هذا القانون والعلوم القائمة عليه فى أمة وأخرى فلا يقال الكيمياء الفرنسية والكيمياء الانجليزية والرياضة العربية والرياضة الفارسية إلا بمقدار ما تختلف الأمم فى إدراك القوانين والعجز عن إدراكها أو فى الإصابة والغلط الى أن تصحح أمة أغلاط

أخرى ويأخذ العاجز عن المدرك. وأما القدر الذى ينالـه إدراك الأمم فلا يختلف باختلافها. وهذا الجنس من المعارف يمكن نقله من أمة الى أخرى ويسير أن ينقل .

والقسم الثانى من ثقافة الناس أو معارفهم يتصـل بالأنفس والعواطف والأذواق ويختلف باختلاف الأقوام والأوطان والعصور ويعسر نقـله من أمة الى أخرى إن لم يتعـذر . وتلكم الاداب والفنون والقوانين والتواريخ ونحوها . وهى التى تنسب الى الأقوام والبلدان وتختلف باختلافها .

فاذا قلنا الثقافة العربية فينبغى أن يكون كلامنا فى هذا الضرب من الثقافة الذى يقبل الانتساب إلى العرب أو لغـة العرب ويقبل الاختلاف باختلاف الأمم ويؤيد هـذا التخصيص أن الثقافة لا تخلو من معنى التهذيب والتأديب. وهما يكونان بالآداب والأخلاق والأمور النفسية لا بالعلوم الطبيعية .

فما هى اذن الثقافة العربية التى نجعلها موضوع حديثنا ونتتبع آثارها فى حضارة مصر الحديثة هى فى جملتها الأدب والدين والتاريخ والقانون وما يتصل بها وأرجو ألا أكون قد أملت بهذا التمهيد الطويل فما وجدت عنه مذهبا ولا رأيت منه بدا فى تحديد موضوعنا .

الأدب

الأدب الذى نقرؤه وندرسه ونحفظه ونعتز به ونمتع به نفوسنا وننشئ به أولادنا ونربى به العاطفة والخيال والخلق والذى نتخذ مكارمه مثلا ومساوئه سبة والذى نأنس به ونسكن اليه وننتفع بجده ونلهو بهـزله — الادب الذى نعرف منشئيه والذى نتمثل به فى سرائنا وضرائنا ونضرب أمثاله ونحكيه ونحتذيه وكأننا نعائش أشخاصه ونشهد وقائعه ؛ هو الأدب العربى لامحالة .

ما تزال حوادث الأدب العربى فى الجاهلية والإسلام موضع عناياتنا نتعرفها ونشيد بها ولا يزال شعر زهير وعنتره ولبيد واوس والحطيئة وجرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة والكميت والطرماح وابن أبى ربيعة وبشار وأبى نواس وابن الوليد وأبى تمـام والبحترى والمتنبى والمعرى والرضى والابيوردى والارجانى والغزى وابن هانى وابن عمار وابن خفاجه وابن حمديس ومن عاصرهم ولحق بهم من الشعراء لا يزال شعرهم غذاء للتأدب ومتعة للأديب فى مصر ومعينا لشعرائنا لا يغيض .

وما يزال الجاحظ والبديع والخوارزمى وأبو حيان التوحيدى والصابى وابن الأثير وابن زيدون وابن شهيد وابن خلدون ؛ مثلا ومادة لمتأدبينا وكتابنا .

ولا يزال المصريون يطمحون الى المثل العالية والأخلاق الكريمة التى أشاد بها الأدب العربى وما تزال الشجاعة والإقدام والعزة والإباء والوفاء والسخاء تستمد من شعر الجاهليين والإسلاميين من الشعر الحماسى الذى فاض فى الأجيال العربية فيضا من عنترة الى المتنبى وابى فراس الى البارودى وشوقى .

ولاتزال الدارات والأودية والمياه والجبال التى تغنى بها الشعراء القدماء معروفة محفوظة فى نفوسنا ولايزال الشجر والحيوان وما اتصل بهما من وصف ولهو وصيد ماثلة فى خيالنا ولاتزال منابت الشيح والقيصوم والغضا والسلم ورياض العراق وجنات الشام وغابات الأندلس أو حدائق مصر كما وصفها الشعراء والكتاب مصورة بيننا نكاد نشهد جمالها ونشم عبيرها ونتفيأ ظلالها ونرد مياهها .

والأدب العامى مشتق فى جملته من هذا الأدب وموضوعه قصص عنترة وسيف اليزن والهلالية تملأ حوادثها نفوس العامة ويستولى رجالها على قلوبهم ويعيشون بينهم حتى لينقسمون شيعا فى الانحياز الى هذا البطل أو ذاك . وكثيرا ما تتقبل العامة أخلاق هؤلاء الأبطال ويتمثلون بأقوالهم .

ثم الأدب الذى ينشئه الشعراء والكتاب أو المصريون فى عصرنا هذا مطبوع على غرار الأدب العربى فهو الأدب العربى فى أحد عصوره وأوطانه هو الأدب العربى فى مفرداته وتركيباته ومجازاته وكفاياته وتشبيهاته وخيالاته وموضوعاته هو فى قوافيه وأوزانه والذى نبتدعه نحن من الألفاظ أو المجازات والموضوعات هو تطور لهذا الأدب أو زيادة عليه كما تتطور آداب الأمم وتكمل وتصعد فى سلم الكمال درجات ولكن الدرجة السفلى والدرجة العليا وما بينهما درجات متوالية فى سلم واحد .

والذى يأتينا من الخارج من صور الحضارة الغربية فهو مدد لأدبنا العربى ومادة لصناعته كالصبغ للصور أو الفكرة له أو الماء للشجر . وما انفصل عن الأدب العربى من هذا فهو مفصول مقصور على فئة قليلة لا يعد من أدب الأمة ولاتعد هذه الفئة من أدبائها فإنما يعد الأدب أدب أمة حين يعم المتأدبين فيها ويبين عن جمهرة عواطفها وأفكارها كما أن معرفة طائفة من الأمة أدب أمة أخرى واستمداده منه لا يجعل أدب تلك الأمة أدبا لأمتهم .

وأما الدين الاسلامى فلست أبحث هنا فى أنه من الثقافة العربية أو ليس منها بل أحب أن أسمو به عن النسب الذى يحده بحدود العصبيات وهو أوسع من الحدود وأسمى من نزعات الأقوام ولكنى أقول إن هذا الدين الانسانى العام قد قدر له البيان العربى فكان وسيلة الى تمكين هذا البيان فى نفوس المسلمين ولاسيما العرب منهم . ولست فى حاجة الى أن أبين أثر القرآن والحديث وما اشتق منهما واقتفى أثرهما من مواعظ وحكم وخطباء وما فاضت به منابر مصر فى كل مدينة وقرية من البيان العربى فى كل جمعه فكان حياة مستمرة وتجديدا دائما للأدب العربى فى النفوس وعلى الألسنة .

ولست فى حاجة الى أن أبين ما كان لتفسير القرآن وشرح الحديث فى توسعة البيان العربى والإبانة عن دقائقه ولاما اشتملت عليه كتب التفسير والحديث من شواهد الأدب العربى

وصوره ونحن نعلم مالتفسير والحديث من مكانة فى الجماعات الاسلامية وما لها من اتصال بالنفوس وتأثير فيها مهما أصاب الأدب من غير، واعتوره من ضعف بين جمهرة العلماء والمتعلمين، ولم يكن حظ الأمة المصرية من الدين دون حظ الأمم الأخرى، فكان لها من الأدب المتصل به نصيب موفور .

القانون :

وأما القانون فهو صورة واضحة جلية من صور الثقافة يبين عن مبلغ إدراك الأمم للحقوق والواجبات وقواعد العدل والوسائل الحسنى التى يلتئم بها عمل الجماعة وتنتظم بها علاقة الفرد بالفرد وعلاقة الفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالجماعات، وبعض هذه القوانين ينفذه السلطان قهرا مثل القانون المدنى والقانون الجنائى ومنها ما يترك لحكم الجماعة واستحسانهم واستهجانهم مثل قانون الأخلاق .

والفقه الاسلامى أوسع وأشمل من هذين، فهو يشمل قوانين الحكومة أو قوانين السلطان وقوانين الدول ويشمل قانون الأخلاق ويشمل غيرها كقوانين العبادات وهو متصل بالانسان منذ يخلق جنينا إلى أن يموت وتقسم تركته . يصاحب الانسان فى بيته بين أسرته وعياله وفى الطريق وفى السوق وفى المزرعة وفى كل صلة بينه وبين الجماعة التى يعيش فيها، أو فرد من أفرادها هو فى نظافة جسمه ولباسه وفى طعامه وشرابه وفى عبادته وتجارته وسعيه للرزق، وسلمه وحربه وخصومه وصلحه، يهتدى بالفقه، فهو صور كثيرة مفصلة من صور الثقافة المصرية .

وإن قيل إن الفقه يرجع الى الاسلام وقد قلت إنى لا أريد حده بحدود الأمم فللامراء أن الفقه فى قواعده يرجع الى نصوص القرآن والحديث والى ما عرف من مقاصد الاسلام ولكنه فى استنباط أحكامه وتعميمها وترتيبها وتفصيلها وشرحها وتطبيقها على الأحداث ضرب من الثقافة العربية يمثل جانبا عظيما منها فى عصورها المختلفة والعرب بدءوا هذا العمل وداموا عليه وشاركهم غيرهم من المسلمين فى السير على هذا المنهاج وقد فرغنا من القول إنه لا يمكن التفريق بين ما أنشأه العرب وغير العرب وبين ما ألف فى البلاد العربية وما ألف فى غيرها من ضروب الثقافة التى ساغ لنا أن نسميها الثقافة العربية .

ولا ينقص قولنا ما نراه اليوم فى مصر من قوانين مأخوذة من قوانين الأمم الأوربية مستندة فى أصولها وتفسيرها الى الشرائع ويتصل بها نظم للتقاضى وانفاذ الأحكام لم تؤخذ من فقهنا فاما الأمور الشكلية من اثبات الدعوة وما ينص بها الى أن يقضى فيها فليست ذات خطر ولا ذات أثر فى ثقافة الأمة وانما يعنينا قواعد القوانين وأصولها التى تقوم عليها على تبدل نصوصها واختلاف جزئياتها وهذه الأصول بعضها وافق للاصول المعروفة فى الفقه فلا تبدل شيئا فى الثقافة العربية والمخالف منها لقواعد الفقه لم يحل ما فى نفس الأمة محل هذه القواعد بل لا تزال قواعد الفقه أكثر اتصالا بنفس الجماعة وأكبر تأثير فيها ولا يزال جمهور الناس يتعرفون أحكام الشرع ليلائموا بينها وبين أعمالهم مختارين محتسبين يسألون

عن حكم الشرع فى بيع أو شركة أو شرط فى عقد أو وسيلة الى ربح لتطمئن به نفوسهم وتسكن اليه قلوبهم وهم لا يسألون عن حكم القانون الا حين التقاضى ليقبلوه طوعا أو كرها ولا يتحرجون أن يخلصوا من أحكامه بأية وسيلة لانهم يعدونه أمرا غريبا عنهم ليس له فى نفوسهم من سلطان الا سلطان القوة .

وميزة أخرى أن الفقه يتعرفه جمهور الناس تدينا سواء منهم من يعنى بالقوانين ومن لا يعنى فثقافة أوسع وأكثر تغلغلا فى الجماعات وأكبر أثرا فى أنفسها يخالج ضمائرها ويقوم سيرها ويؤثر فى أعمالها على حين تبقى القوانين الأخرى بعيدة منهم إلا أن تدخلها بينهم الضرورة أو القوة .

لا أنكر ن فى مصر جماعة تثقفوا القوانين الوضعية وآمنوا بها وبلغت من نفوسهم واجلالهم مبلغا بعيدا ولكنى أتكلم عن الأمة كلها وهى فى جملتها أقرب الى الفقه وأعرف به وأكثر اجلالا له وطاعة وقل أن تخلو قرية أو محلة فى مصر من جماعة تعرف الفقه أو تلم بكثير من مسائله .

. التاريخ :

وأما التاريخ فيدخل فى الثقافة العربية من جهتين الأولى من حيث هو معارف وعبر عامة دخلت فى الثقافة العربية وشاعت فى أدب العرب ومحاضراتهم ومواعظهم وأمثالهم ويستوى فى هذا تاريخ الأمة العربية وتاريخ غيرها فما كتبه مؤرخو العرب عن العرب والفرس واليونان والرومان وغيرهم وشاع فى مؤلفاتهم وانتشر بين جمهور علمائهم وأدبائهم بعد ثقافة عربية وهو ضرب من الأدب العربى فسيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وابن الأثير وأبن مسكويه والذهبي والفخرى وابن خلدون وأكليل الهمذانى وتاريخ بغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة وتراجم ابن خلكان واليتيمة والذخيرة كل هؤلاء وأمثالها داخلة فى الثقافة العربية وهى اليوم داخلة فى الثقافة المصرية تؤثر فيها .

ويدخل التاريخ فى الثقافة من جهة ثانية خاصة هى تسجيل خطوب الأمة العربية وتخليد مفاخرها ومآثرها وتدوين عبرها ومثلاتها والاشادة بالعظماء من رجالها ونسائها وانه يصل بين سيرها على مر الزمان ويجريها فى مجرى واحد فيمد عمرها على الأجيال ولا يقيسه بأعمار الرجال وانه يعرفها نفسها ويذكرها بماضيها ويدعوها الى الاحتفاظ بمجدها والاعتزاز بمفاخرها ويهيب بها الى الجهاد والدأب ويدعوها الى العزة دعوة لا تنقطع ويناديها الى المجد نداء لا يخفت .

والتاريخ العربى لا يزال داعيا موحيا الينا عاملا فينا حافزا لهممنا مثيرا لنخوتنا محببا لآمالنا شاحذا لعزائمنا .

نحن نقرأ وندرس تاريخ العرب قبل الاسلام بين الحضارة والبداوة نقرأ تاريخ دول اليمن أو تاريخ المناذرة والغساسنة وتاريخ مكة والمدينة ونقرأ تاريخ القبائل البادية وأيامها مفاخراتها وتقلبها فى مسارحها من أرض الجزيرة وساحات الزمان فلا تشعر اننا نقرأ تاريخ غيرنا بل نفخر بمآثر العرب الجاهلين ونعتز بأبطالهم .

ونحن نقرأ سير خالد ابن الوليد وعمرو ابن العاص وأبى عبيدة بن الجراح ومعاوية على انهم عظماؤنا ونزهى بعبد الملك بن مروان والوليد وهشام لأنهم من خلفائنا أو ملوكنا .

وكذلكم نفخر بالمنصور والرشيد والمأمون والمعتصم كما نفخر بالمعز الفاطمى وعبدالرحمن الناصر الأموى والمعتمد بن عباد الأندلسى وسيف الدولة الحمدانى وأمثال هؤلاء ولا يشعر المصرى الا أنه يقرأ سير سلفه وكبراء أمته وأبطال تاريخه وسيرة العرب الأوان هى مثلنا الأعلى فى العدل والاحسان وفى الشجاعة والاخلاص وغيرها من مكارم الأخلاق وكم لنا من قدوة بين العلماء والأدباء والصالحين نقرأ سيرهم ونحتذى أفعالهم فالتاريخ العربى محيط بالبيئة المصرية مستقر فى نفوس المصريين مؤثر فيهم تأثير كل تاريخ مجيد فى نفوس الطامحين من أمته .

وبعد فهل سؤالا يتردد فى النفوس ألم يكن لمصر نصيب فى هذه الثقافة ولماذا لا يعد ما أنشأه المصريون من علم وأدب ثقافة مصرية .

لا أجحد نصيب مصر فى هذه الثقافة العربية فلمصر فقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها وكتابها ومؤرخوها وقد ألف المصريون أجمع الكتب للثقافة العربية بعد غارات التتار على العالم الاسلامى وحسبنا لسان العرب لابن منصور المصرى وصبح الأعشى للقلقشندى ونهاية الأرب للنويرى وحسبنا أمثال المقريزى والسيوطى .

ولا ريب أن لمصر نصيبا عظيما من هذه الثقافة ولكنى لا أعده ثقافة مصرية مستقلة فكل فرع من هذه الثقافة حين يمسك به الباحث يصله حتما بالأصل العام فاذا أخذت لسان العرب مثلا وصلك بكل معاجم العرب واذا أخذت صبح الأعشى وصلك بالموضوعات التى تناولها فى كل البلاد العربية. تلك ثقافة مصرية ولكنها جزء من الثقافة العامة التى أسميناها الثقافة العربية .

ثم اختتم المقال بجواب هذا السؤال ما أثر الحضارة الأوربية المحيطة بنا فى ثقافة مصر الحديثة ؟ لاشك أن للحضارة الحديثة أثرا فى النواحى الاجتماعية والسياسية والفكرية من حضارتنا ولكن الثقافة الغالبة العامة الشاملة هى الثقافة العربية ، وقد سئلت عن أثر الثقافة العربية فى مصر الحديثة فأجبت . وأما الثقافة الأوربية فلم أسأل عنها ويضيق المقام عن التعرض لها والسلام .

دكتور

عبد الوهاب عزام